

القاضي عياض
بين العلم
والأدب
المكتبة الصغيرة
٤٢
عبد الله كنون

المكتبة الصّغيرة

٤٢

القاضي عياض

بين العلم والأدب

عبد الله كنون

الطبعة الأولى

فبراير (شباط) ١٩٨٣م
جمادى الاولى ١٤٠٣هـ

منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الغلاف من تصميم الفنان : محسن منصور

القاضى عياض

بين العلم والأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

مساهمة المغرب فى بناء الحضارة العربية والعلوم الاسلامية

كان قيام الدولة الادريسية سنة ١٧٢ إيذانا بانفصال المغرب عن الخلافة العباسية، وميلاد شعب متميز فى المجموعة الكبرى من الشعوب التي تكوّن الدولة الاسلامية. ولم يكن المغرب أول من انفصل على الخلافة العباسية، فقد سبقته الأندلس حين استولى عليها عبد الرحمن الداخل، وأسس بها الدولة الأموية سنة ١٣٨ أي بعد ست سنوات فقط من سقوط الخلافة الأموية بالمشرق.

ويتشابه السببان الباعثان على خرق الوحدة السياسية للدولة الاسلامية، فعبد الرحمن الداخل قام منتقما لذويه وأسرته بني أمية، ومحاولا لاحياء خلافتهم التي انقرضت. والمولى أدريس الأول كان مطالباً بحق أهل البيت العلويين فى الخلافة، لا سيما بعد أن وقعت البيعة بها لأخيه محمد النفس الزكية أواخر أيام بني أمية بحضور أبي العباس المنصور العباسي، وأفتى الامام مالك بصحة هذه البيعة، وبطلان بيعة المنصور لأنها كانت على سبيل الاكراه. فعذره فى الخروج واضح وحقه أوجب من حق عبد الرحمن الداخل.

والمهم الآن هو النظر فى النتائج لا فى الأحقية، فمن المؤكد أنه لولا استقلال الأندلس لما بلغت ما بلغته من التقدم والازدهار، والمغرب بالأحرى، فقد مر عليه منذ الفتح الاسلامي سنة ٦٢ أكثر من قرن، وهو تحت حكم الولاة الذين يأتون من المشرق، من غير أن ينغير من أمره شيىء، بل بالعكس أصبح ميدانا للشعوذة وظهور المتنبئين، وتقاطرت عليه فرق الخوارج يجربون حظوظهم فى التمرد والاستيلاء على السلطة، وذلك لبعده عن عاصمة الخلافة ومقر الحكومة المركزية، ووقوعه فى أقصى البلاد التي لا ينالها من عناية الدولة إلا القليل.

فلما انتصبت الدولة الادريسية قضت على مختلف النزعات المخالفة للسنة، وطاردت الخوارج، وبنت العاصمة الروحية للبلد التي هي مدينة فاس، واستقبلت وفود العرب الفارين من الظلم، اندلسيين وقيروانيين وانتشر مذهب الامام مالك فى العبادات والأحكام، بموجب ميل الدولة إليه، إذ كان رحمه الله من مناصري دعوة العلويين، وافتى كما سبق القول بترجيحها على بيعة العباسيين، وانشىء جامع القرويين بمبادرة من سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان، وهو الذي أصبح منارة مشعة للعلم والمعرفة فى غرب أفريقيا والعالم الاسلامي قاطبة. وبرزت شخصية المغرب كدولة لها كيانها ومقوماتها الروحية والمادية التي تحفظ وحدتها وتضمن بقاءها على الدوام والاستمرار.

وهكذا وضعت الأسس الحضارية للمغرب، متأثرة بحضارة دمشق بحكم التبعية لها أيام الولاة، وما حمله معهم مهاجرة القيروان وقرطبة وما

نشأ بعد ذلك من التمازج بين المغرب وهذه البلاد ، فهي حضارة عربية أصيلة حافظ عليها المغرب من عهد الأدارسة إلى أيام المرابطين ، حين قوى التأثر والتأثير واستمرت إلى عهد الموحدين الذين تبنوا أصولها ورفعوا قواعدها بالعلم والمعرفة والدولة الواسعة ، وفى أيام المرينيين اكتسبت طابعاً خاصاً لا سيما فى المعمار والفن ، وهو الطابع الذي ما تزال تحافظ عليه إلى الآن ، وتتميز به عن البلاد الاسلامية الأخرى ، لأنها لم تتأثر بما تأثرت به هذه البلاد من عجمةٍ أيامَ العباسيين والمماليك والحكم العثماني الذي طرق أبواب العالم الاسلامي إلى حدود تلمسان ، ولكن المغرب بقي خارجاً عنه وواقفا منه موقف النِّدِّ ، وذلك هو ما يعطي للمغرب هذه المكانة الدولية التي تسلكه فى عداد الدول الكبيرة ، ذات الشأن فى السياسة والسلطان ، فضلاً عن الصورة العربية الأصيلة لحضارته ، التي تبهر حتى أخواننا العرب الذين يزورونه لأول مرة ، ولا يكونون يتصورونه على هذه الحال .

ولا يستكثر هذا الذي ذكرناه على الدولة الادريسية الصغيرة ، فإن عزيمة أهل البيت وهمتهم وطموحهم ، ومالي لا أقول وبركتهم ، إذا كانوا فى مثل ديانة ادريس الأول وخلفائه ونصحهم وإخلاصهم للأمة ، تفعل الأعاجيب ، ومثال الشمال المغربي أعظم دليل على ذلك ، فإن مملكة فاس وما إليها إذا كانت قد نشأت عربية الروح واللسان فذلك مما لا غرابة فيه ، ولكن الأمر المستغرب ، هو أن بقية هذه الدولة التي لجأت الى الشمال ، بعد ما أخرجها موسى بن أبي العافية من عاصمتها فاس واستولى على جُلِّ عمال المغرب ، فاستقرت فى قلعة النسر بأعلى سماته

من قبائل الناحية الجبلية، تحت إمارة القاسم كنون، وهي الامارة التي يسميها المؤرخون بالدولة الادريسية الثانية، هذه الامارة فعلت ما لم تفعله الدول الكبيرة التي حكمت المغرب، وذلك أنها عربت قبائل الشمال كلها الجبلية والغمارية وغرست فيها حب العلم وحفظ القرآن، فصارت حصناً من حصون لغة الضاد، فهي لا تتكلم إلا بالعربية، ولا تعرف غيرها، واشتهر أبناؤها بحفظ القرآن وتخريج أكبر عدد من حفاظه فى المغرب، بحيث صاروا هم أكثر معلميه فى المدن والقرى، بالشمال والجنوب، وهذا الى العدد العديد من العلماء الذين نبغوا منهم فى مختلف العلوم والفنون.

أليس هذا من بركة آل البيت؟ وأما قبل وبعد، ألم يكن قيام الدولة الادريسية خيراً وبركة على المغرب وأهله؟

أليس قيامها هو الذي مهد لقيام دول المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين، وما ظهر أيام هذه الدول من نهضة علمية وحضارية جعلت للمغرب شأنا غير الذي كان له أيام الولاة، وما كان محتملا أن يبقي عليه لو لم تقم الدولة الادريسية؟

أما أن النهضة العلمية والأدبية تأخرت الى ما بعد القرن الرابع، فإنها كذلك تأخرت فى بقية الأقطار العربية التي لم تكن مركزا للخلافة. وكانت هذه الأقطار تعيش النهضة الكبرى التي شهدتها دمشق ثم بغداد، ولو من بعيد، فعلماؤها وأئمتها علماء وأئمة لتلك الأقطار!

وأدباؤها وشعراؤها أدباء وشعراء للأمة العربية أينما وجدت ! وهل هناك من يقول ان الامام مالك وأبا حنيفة والشافعي مثلا هم ملك خاص للبلاد التي أنجبتهم وأقاموا فيها ؟ وبالمثل هل الجاحظ وابن قتيبة وأبو حيان التوحيدي وأبو تمام والبحتري والمتنبي إلا تراث مشترك بين أبناء العروبة كلهم ، مشرقيهم ومغربيهم ، لأن المجتمع الذي أوجدهم ، هو مجتمع النهضة العربية الكبرى الذي ساهم فى تكوينه جميع البلاد العربية والمستعربة ، فلما لم يعد له وجود ، لم يعد لمثلهم وجود ؟ !

وهذا ما خفي على بعض أهل العلم والأدب ، فراحوا يغمزون ويلمزون الأقطار التي تأخرت نهضتها عن هذا العهد ، ولا سيما فى المغرب ، وهم ممن يلزمهم ذلك ، وان عاشوا فى المشرق ، لأن بلادهم لم تكن مهدا لأولئك النبغاء ، ومنشأ لهم ، وهم ليسوا بأولى بهم من غيرها .

يحكى أن الصاحب بن عباد لما سمع بكتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه اشتدت رغبته فى اقتنائه والاطلاع عليه . وعند ما حصله وتصفحه قال : « (هذه بضاعتنا ردت إلينا) كنت أظن أنه يشتمل على شيىء من أخبار بلادهم ، فإذا هو لا يعدو أخبار بلادنا ، ردوه إلى صاحبه ، لا حاجة لنا به » .

ومنذ قال الصاحب هذه الكلمة والناس يحملونها محمل الزراية على ابن عبد ربه وكتابه ، وهي كذلك فى الظاهر ، إلا أنهم يغفلون عما

تخفيه وراءها من حقيقة تاريخية عن واقع الحياة الأدبية فى الأندلس على عهد ابن عبد ربه، وهو عهد حكام قرطبة من بني أمية.

فقد كان ذلك العهد فى الحقيقة امتداداً لعهد الخلفاء الأمويين فى دمشق، السياسة سياستهم، والاجتماع والأدب ما كانا عليه أيام عبدالملك بن مروان وأبنائه فى العاصمة العربية الخالدة. وفيما كانت بغداد تبني مجدها ومجد العرب العلمي على أساس النقل والترجمة وتصدر الفكر والحضارة بالاقتباس من الأمم التي سبقتهم فى هذا الميدان، كانت قرطبة ما تزال تركز صبغتها العربية، فتوفد رجالا للتضلع من الثقافة العربية الاسلامية فى منابعها الأصيلة بالمدينة وغيرها، وتستقبل آخرين من أعلام هذه الثقافة الواردين عليها من المشرق كأبي علي القالي، وصاعد البغدادي، فيلقون من الحفاوة والاكرام ما كان يلقاه الأطباء والفلاسفة حينذاك فى بغداد عاصمة العباسيين.

ولأمر ما كان ظهور كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني فى الأندلس قبل ظهوره فى المشرق موطن مؤلفه.

وإذن فإن ابن عبد ربه لم يكن إلا حاكياً لصدى الثقافة العربية المنتشرة فى بلاده، ومعبراً أمينا عن التيارات التي توجه هذه الثقافة.

وبديهي أننا لا نعني انصراف بغداد عن الاهتمام بالثقافة العربية الاسلامية وتشجيعها ولا اهمال قرطبة اهمالا كلياً للعلم والفلسفة، وانما

نقصد أن هذه هي الحالة التي كانت غالبة على كل من العاصمتين.

وحديثنا عن الأندلس يشمل المغرب العربي كله، ففي القيروان بالمغرب الأدنى وفى فاس بالمغرب الأقصى، لم يختلف الاتجاه عما رأيناه فى قرطبة. وإن لم تبلغ هاتان العاصمتان قط مبلغ قرطبة فى نمو الحياة الأدبية وازدهارها لأسباب معروفة.

أما متى تبوأ المغرب مكان الصدارة فى الحياة الفكرية العربية وأسهم مساهمته الفعالة فى تقدم هذه الحياة، فذلك حين توحد على يد أمراء المسلمين من ملوك المرابطين ثم على يد خلفاء الموحدين، وتابع طريقه بعد ذلك الى هذا اليوم. فقد كانت الانتكاسة التى حلت بالاندلس بعد انقراض دولة الأمويين وقيام ملوك الطوائف توذن بانحسار المد العربي فى هذه البلاد لو لم يتسارع البطل المغربي العظيم يوسف بن تاشفين لانقاذها. وفضل هذا الملك فى استرجاع الاندلس إلى حظيرة العروبة والاسلام بعد أن اشرفت على الضياع لا يعادله إلا فضل فاتحها الأول طارق بن زياد المغربي.

ومعلوم أن الشرارة التي أعدت الغرب الأوربي فأقامت فيه هذه المدنية الحديثة إنما انبعثت إليه من الأندلس فى هذا العهد. فإن فلسفة ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر وطبهم هما اللذان فتحا أعين الأوربيين على حقائق العلم الصحيح ونتائج المعرفة المبنية على التجربة والمشاهدة. وهؤلاء الأعلام إنما نبغوا فى أيام المرابطين، وإنما آتوا أكلهم

الشهي فى أيام الموحدين. فمن الثابت تاريخياً أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن هو الذي حمل ابن رشد على تلخيص فلسفة أرسطو وتهذيبها وكتابة ما كتبه عليها من الشروح والتعاليق. وكان هذا الخليفة أشبه الملوك بالمأمون العباسي فى الشغف بعلوم الحكمة والعمل على نشرها. وكان هو نفسه متحققاً بكثير من مسائلها مشاركاً فى جملة من فنونها. ويقول عبد الواحد المراكشي فى كتاب (المعجب): «إنه استظهر من الكتاب الطبي الملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل. ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة».

وكان قد استوزر الفيلسوف أبا بكر بن طفيل وهو الذي دلَّه على ابن رشد فاستدعاه وأفضى إليه برغبته المذكورة، كما حكى ذلك المراكشي فى تاريخه عن تلميذ له اسمه أبو بكر بن داؤد القرطبي عنه قال: «استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لي: سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل. وأني لأرجو أن تفي بها لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة. وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو أهم عندي منه. قال أبو الوليد: فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لحظته من كتب الحكيم أرسطو طاليس».

ويحكى ابن رشد عن انطباعه فى أول لقاء له مع يوسف بن عبد المؤمن على ما رواه عنه تلميذه المذكور، فيقول: (لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لم يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال: ما رأيهم فى السماء، يعني الفلاسفة، أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بالفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل، وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك. فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية.

وأما عن النهضة الأدبية فإن ما عرف الناس منها على عهد المرابطين ثم الموحدين أعظم بكثير مما عرفوه على عهد من قبلهم. والمجموعات الأدبية الكثيرة التي تضم عدداً عديداً من أسماء الشعراء والكتاب النابغين فى المغرب والأندلس انما صنفت فى أيام توحيد المغرب وبأسماء ملوكه وأمرائه، مثل قلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسام وزاد المسافر لصفوان بن إدريس وصفوة الأدب للجراوي وما إليها. وهي الدواوين التي تضمنت طِلبَة الصاحب بن عباد، ولو رآها لما قال

كلمته تلك، ولكن أنّى له أن يراها وهي انما ألفت بعد زمنه فى عهد اكتمال الشخصية الأدبية المغربية وازدهار الثقافة العربية فى هذه البلاد.

وأتعجب من المستشرق رينهرت دوزى فى ادعائه أن الحياة الأدبية بالأندلس قد اضمحلت بعد استيلاء المرابطين عليها، وها نحن أولاء نرى العكس، وقد خطأه فى ذلك المستشرق الأسباني كارسيا كوميس، ولكنه عاد فوقع فى مثل خطأه بحكاية الأقوال الصبيانية التي نسبها بعض المؤتورين إلى يوسف بن تاشفين. وهى عقدة يصعب على الكتاب المسيحيين أن يتخلصوا منها مهما تحلوا بصفة الأنصاف.

والآن نذكر بعض الأعمال التى قام بها أفراد من المغاربة فى سبيل تقدم الثقافة العربية والحضارة الاسلامية ورفع لوائها الخفاق فى كثير من الآفاق.

فإلى جانب طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين يجب أن يذكر الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي تنازل عن الملك لابن عمه يوسف، ومضى هو ينشر الدعوة الاسلامية وفى ركابها طبعا اللغة العربية بين أقطار أفريقية الغربية. فزهد فى المال والجاه والنعمة بأرض المغرب والفيحاء ودخل الصحراء التي يلفح سَمُومها ويقتل حرُّها وتوغل فى البلاد السوادين مبشراً بكلمة ربه مقدماً بين يديه المصحف الكريم فلم ينته حتى وصل الى حدود غينيا. وهكذا خفقت راية الاسلام فوق السينغال ومالي والنيجر، وتبع ذلك انتشار العلوم الاسلامية والعربية

التي ما فتئت جامعة القرويين تغذي أبناء هذه الأقطار بلبانها حتى يومنا هذا.

وعلى ذكر القرويين فإننا لا نغفل دور هذه الجامعة فى خدمة الثقافة العربية الاسلامية وتقدمها ونشرها فى أقطار المعمور. ونقول فى أقطار المعمور ونحن نعني ما نقول. فقد كرع من حياضها رجالاً لا يحصون من أهل المشرق والمغرب ومن أوربا أيضا وظلت منذ تأسيسها سنة ٢٤٥ وهي منارة إشعاع فكري فى العالم الاسلامي إلى جانب شقيقتيها جامعة الزيتونة وجامعة الأزهر.

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذكر النابغين من أبناء المغرب فى مختلف العلوم اسلامية وقديمة، ولذلك فإننا نكتفي ببعض الأمثلة التي فيها غنية عن الاكثار. ونتبديء بالعلوم الاسلامية لشرفها.

ففي هذا الميدان من الاختصاص العلمي لا نقدم إلا شخصاً واحداً وهو القاضي عياض الذي يساق له الكلام فى هذا الكتاب، فإن فيه الكفاية.

ومن نبغاء أهل المغرب فى علم العربية من جاذب سيبويه حبل الذكر وتقمص معه جلباب الشهرة وهو ابن آجروم. فذاك ألف (الكتاب) فضمنه علم النحو بجميع قواعده وشواهده وعصم لسان العرب من اللحن على كونه أعجمياً، وهذا وضع (الاجرومية) فجعلها مقدمة

الكتاب ومدخلا له لم يلجه أحد إلا من بابها، وغبر زمان طويل لم يكن اعتماد العرب فى تثقيف ألسنة أبنائهم إلا عليها مع كون صاحبها أعجمياً أيضاً. ولقد بلغ من تقدير العرب لهذا الرجل ومقدمته الصغيرة أن أطلقوا اسمها على علم النحو فقالوا (الاجرومية) وعنوا النحو حتى التبس ذلك على أحد الأعلام من رجال النهضة الحديثة وهو الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة (المقتطف)، وظن أن العرب أخذوا هذا الاسم من لفظ Grammaire اليوناني الأصل الذي يعني النحو.

ويلي ابن أجروم فى الشهرة بعلم النحو أبو موسى الجزولي صاحب الكراسة الشهيرة فى هذا العلم. وابن معطي صاحب الألفية التي نظم ابن مالك ألفيته المعروفة على منوالها.

وفى علم اللغة ناهيك بابن الطيب الفاسي الذي أربت كتبه على الخمسين من أعظمها فائدة وأكثرها عائدة حاشيته الكبرى على قاموس الفيروزبادي التي استقى منها كثيرا شارحه الشيخ مرتضى الزبيدي فى تاج العروس واعترف بأنه شيخه فى هذا العلم. ومالك ابن المرحل الذي نظم فصيح ثعلب، وابن منصور المغراوي صاحب عدة كتب فى الغريب.

أما الشعر والأدب فعندنا الشاعر ابن حَبُوس الفاسي وهو يعدل بابن هانىء متنبي المغرب والكاتب أبو جعفر بن عطية ويعدل بابن زيدون، والشاعر الجراوي صاحب كتاب صفوة الأدب المعروف

بالحماسة المغربية، والأديب الشاعر المتفنن مالك ابن المرحل. وكان غاية فى النوادر والحكم والأخبار وامتاز من بين شعراء المغرب بتنوع مقاصده وكثرة أغراضه وسعة عارضته وقوة ملكته، وله عدة دواوين شعرية ومؤلفات فى اللغة والأدب وفنون المحاضرة. منها كتاب (الضرب بالعصى والرمي بالحصى) الذي حاور فيه ابن أبي الربيع النحوي، وغيره. واخترع عروض الذوبيت المجزو كما قال لسان الدين ابن الخطيب ونظم فيه قصيدة غزلية سائرة يقول فى مطلعها:

الصب إلى الجمـــال مائـــــل
والحب لصدقـــــه دلائـــــل

وقد اشتهر هذا البحر ونظم عليه كثير من الأدباء، ونشرت أخيراً فى العراق رسالة له فيه. قال ابن الخطيب: «وملحه فى اختراع الأعاريض كثيرة» إذن فنحن بازاء أوزان شعرية جديدة، تقوم إلى جانب الموشحات التي كانت من اختراع الأندلسيين. وقد ذكر العلامة محمد ابن عبد المجيد بن كيران هذا العروض ووزنه ووجه اسمه وذلك فى رسالته فى علم العروض، ونسبه كذلك الى ابن المرحل. ويشبه ابن المرحل فى المتأخرين ابن زاكور الأديب الشاعر المؤلف، وله ديوان شعر معروف وشرح على ديوان الحماسة سماه (عنوان النفاسة) وشرح على قلائد العقيان وكتب أخرى من هذا القبيل.

وبين ابن المرحل وابن زاكور شعراء آخرون كثيرون لا فائدة فى ذكر

أسمائهم من غير ذكر لآثارهم. ومنهم فى عصر السريني الشاعر الفحل الفيلسوف الطبيب أبو العباس أحمد الجزنائي، وفى العصر السعدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي الذي قال فيه المنصور الذهبي « نفتخر به على ملوك الأرض ونباري لسان الدين ابن الخطيب». ومعاصر ابن زاكور محمد بن الطيب العلمي وحده ترجم فى كتابه الأنيس المطرب لأثنى عشر أديباً من أهل عصره العلوي وذكر جملة من أشعارهم ورسائلهم، فيها الكثير الطيب. بل ان عصرينا المرحوم محمد غريط قد ذكر فى كتابه فواصل الجمان نحوا من ثلاثين أديباً ممن أدركهم هو ترجمهم بطريقة النثر الفني الذي كان بارعاً فيه. فالمجال فى هذا الباب واسع وما ألممنا به منه فيه مقتع.

وإذا التفتنا إلى فن التاريخ والتراجم فإننا نرى رصيد المغرب فى هذا الفن مما يغني ويقني. فالمراكشي وابن عذاري وابن أبي زرع وابن القاضي والفشتالي والافراني والزياني والناصري وابن جعفر الكتاني وابن زيدان وغيرهم أسماء لامعة خدمت التاريخ السياسي والأدبي لهذا الجناح من العالم العربي، خدمات جليلة لولاها لساد الظلام على فترات تاريخية وحيوات أجيال يهم كل عربي فضلا عن أي مغربي أن يعرفها لارتباطها بماضي موطنه الكبير ولما تشتمل عليه من أحداث وأعمال يحق له أن يفخر بها ويعدها من مآثر أمته العظيمة.

ولا ننسى الجغرافية والرحلات، فالشريف الأدريسي كان أول من وضع خريطة مدققة للعالم بعد بطليموس. وقد صنعها فى شكل كرة

من الفضة ومثل عليها أقسام اليابس والماء وتحرى فى ذلك مالم يتحره أحد قبله، بحيث بقيت خريطته هذه مدى سنين أصح خريطة للعالم. ألف كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) بين فيه هذه الخريطة وتوسع فى جغرافية الأرض فلكية وعمرانية وطبيعية بما لا مزيد عليه فى الدقة التي يمكن ان يتوصل إليها العلم آنذاك. وقد وقع الاحتفاء بخريطته وكتابه هذا فى أوروبا منذ عصر النهضة الحديثة، فترجمت أجزاء منه ونشرت خرائطه بعناية غير واحد من المستشرقين، لا سيما ما كان منها فريداً فى بابه، كالكتابة التي جاءت فيه عن فلندا. ولم يقتصر الاهتمام به على أوروبا فقد قام المجمع العلمي العراقي بنشر خريطته نشراً علميا دقيقا، وكتب عنه من أعلام العراق الدكتور أحمد سوسة كتاباً قيما فى مجلدين، وقام اخيراً فى ايطاليا جماعة من المستشرقين بتحقيق كتاب النزهة ونشره كاملا، ولصديقنا العلامة محمد بهجة الأثري عناية كبيرة بتحقيقه والعمل على اخراجه فى طبعة علمية تناسب أهميته الجغرافية والتاريخية.

وجاء الرحالة ابن بطوطة بعده فجاب أقطار المعمور وعرف من المجاهل فى أفريقيا وغيرها ما لم يعرفه أحد قبله. وكتب لنا رحلته الممتعة (تحفة النظار) التي ما تزال تستهوي الرواد وعشاق الأسفار فى كل بلد حتى الآن. وهي بدورها قد ترجمت الى عدة لغات ونشرت فى الشرق والغرب. وآخر نشرة لها فيما نعرف كان فى انكلترا فى ثلاثة مجلدات كبيرة مذيلة بتحقيقات وتعاليق مهمة جداً.

أما العلوم القديمة أو الكونية التي تعد تراثاً مشتركاً بين جميع الشعوب فإن المغرب لم يقصر فيها عن غاية بلغتها أمة من الأمم فى العصور السابقة بل شارك فى تقدمها وعمل على نشرها حتى كان ما أشرق من نورها على أوربا فى العصور المتوسطة انما أشرق عليها من جهته كما مر آنفا. وقد اشتهر أن البابا سلفستري الثاني قد درس بفاس وكان يبهر معاصريه بتفننه فى العلوم وانه الذي أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية، ولكن الثابت أنه درس بطليطلة ولا مانع أنه دخل مدينة فاس، ورأى توثب المغرب للنهضة العلمية، ولكن ما من خلاف على أنه الذي أدخل إلى أوروبا هذه الأرقام المستعملة فيها إلى الآن. وهي أحد الشكلين اللذين كان للعرب فضل ابتكارهما هذا الشكل الذي أخذه الأوربيون ويسمونه الأرقام العربية وبه العمل فى المغرب العربي، والشكل الذى يعرف بالهندي وبه العمل فى الشرق العربي، نص على ذلك الرياضي المغربي المعروف ابن الياسمين فى كتابه تلقيح الأفكار.

وابن الياسمين هذا كان من الشخصيات العلمية الفريدة. وهو إلى تمكنه فى الأدب والشعر امتاز بتضلعه فى العلوم الرياضية واشتهرت أرجوزته فى الحساب والجبر أيما اشتهار، وهي تتضمن خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي توجد فى كتب الجبر الحديثة. كما له كتاب تلقيح الأفكار فى العمل برسوم الغُبار يعنى الأرقام الحسابية بشكليها المذكورين، وهو كتاب مهم جمعه من مذكراته التي كان يلقيها على طلبته فى العلوم الرياضية، وهو من كتب الخزانة العامة بالرباط، وكنا أول من انتبه إليه ونبه عليه.

وبجانب ابن الياسمين يذكر ابن البناء العددي الذي طبقت شهرته الآفاق ورفع من ذكر مراكش بما نبغ فى علوم العدد والحساب والهندسة والنجوم وقد ترجمت كتبه إلى اللغات الأوروبية من زمن طويل. وتبنى بعض الرياضيين الغربيين بعض نظرياته فى هذا الصدد كما كشف الستار عن ذلك الرياضي الفرنسي شال. ومن شدة تأثير كتبه فى تقدم العلوم الرياضية أن كلمة Almanac التي تفيد معنى التقويم الزمني انما أخذت من اسم كتابه المنهاج كما يقول سارطون. يعني منهاج الطالب فى تعديل الكواكب، وهو من كتبه المشهورة، وله فى الحساب كتاب التلخيص سار كل مسار وكتبت عليه الشروح العديدة، وقال فيه ابن خلدون «أنه ضابط لقوانين أعماله مفيد» وله أيضا رفع الحجاب وهو أكبر من التلخيص، قال عنه ابن خلدون «هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك» إلى كتب أخرى فى الفلك والهندسة والفلاحة والعلوم الروحانية.

وكان أبو على الحسن بن علي المراكشي من أعظم رياضي العرب فى القرون الوسطى اعترف له بذلك علماء العرب المحدثون وهو صاحب كتاب (المبادي والغايات فى علم الميقات) الذى يقول فيه صاحب كشف الظنون «أنه أعظم ما صنف فى هذا الفن» ونوه سيديو بصواب تصحيحاته فى الجغرافية الفلكية وبسبقه إلى استعمال الخطوط الدالة على الساعات المتساوية فإن اليونان لم يستعملوها قط.

ولو ذهبنا نذكر جميع الرياضيين المغاربة وخصوصا الفلكيين منهم

وما لهم من آثار لما وسعنا هذا المجال الضيق. وفى خزانتنا من تآليف علماء المغرب فى هذا العلم فقط عشرات الكتب والرسائل فما بالك بما فى غيرها، بله ما اندثر ولم يبق له أثر.

ونبغ فى الطب يوسف بن سمعون اليهودي رفيق موسى بن ميمون وزميله فى العمل وأبو العباس الجزنائي الذي كان كاتباً وشاعراً وفيلسوفاً وطبيباً وكميائياً. وأبو القاسم الوزير صاحب كتاب المفردات الطبية المشهور وأسرة أدراق التي تسلسل الطب فى عدة من أفرادها. وابن شقرون المكناسي صاحب الشقرونية فى علم تدبير الصحة. وأبو القاسم الغول وله أيضا نظم طبي مبوب أحسن تبويب. وابن عزوز المراكشي صاحب كتاب ذهاب المكسوف فى طلب العيون، وغيرهم. وبلغت نهضة الطب أوجها فى عهد المنصور الموحدي الذي بنى بمراكش أعظم مستشفى كان فى عصره، ولنستمع الى ما يقوله صاحب المعجب فى وصف هذا المستشفى: «وبنى بمدينة مراكش مارستانا ما أظن أن فى الدنيا مثله. وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع فى البلد، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة مازاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات. وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك فى وسط إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً

عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان، والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم وجهاز الصيف والشتاء. فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى ان يستريح أو يموت. وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيته يقول كيف حالكم وكيف القَوَمَةُ عليكم الى غير ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله.

وبكر المغاربة بوضع دوائر للمعارف العامة قبل أن يظهر هذا النوع من التأليف فى العصر الحديث بقرون عديدة. ومن أحسن ما ينطبق عليه هذا الوصف كتاب الأقنوم فى مداخل العلوم لعبد الرحمن الفاسي. تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً فاستوعب مبادئها واستوفى حدودها بأوجز عبارة وأوضحها وهو نظم من الرجز فى عدة آلاف بيت. ولأبي على الحسن اليوسي كتاب القانون فى احصاء العلوم وتفرعها، وما نشأ منها قديماً وما استنبط فى الاسلام، واقتضاء الملة لكل ذلك، والمقارنة بالنظر الفلسفي بين العلوم العقلية والنقلية وتلخيص مطالب العلوم على اختلافها، مما يشبه فى غايته وطريقة بحثه كتاب أحصاء العلوم للفارابي وما كتبه ابن خلدون فى المقدمة بهذا الصدد، وناهيك بفكر اليوسي الغواص العميق.

هذا ولم نشر إلى تخليد الآثار وعمارة الأماكن والديار، فمصر وأهرامها، وبغداد وقصورها، والحمراء وزخارفها، لا يمكن ان تغطي على ما شاده المغاربة من مصانع هائلة وما أنشأوه من مدن عامرة وما ابتدعوه من فن جميل. فلئن بنى المنصور بغداد والمعز القاهرة، فلقد بنى ادريس الثاني فاس وابن تاشفين مراكش. وتلك عاصمتان إسلاميتان كبيرتان فى اقليمين متباعدين، وهاتان عاصمتان إسلاميتان كبيرتان فى أقليم واحد طالما زهيتا على عاصمتي الشرق بملوكهما وجيوشهما وعلمائهما وأدبائهما حتى لقد قيل كثيرا أن بلاطهما يموجان فى مناسبات مختلفة بما لم يعهد فى بلاط بغداد من أفواج الكتاب والشعراء والفلاسفة والمؤرخين وغيرهم.

وان ننس من المصانع الهائلة الدالة على علو همة منشئها، فلا ننسى المآذن الثلاث، الكتبية بمراكش والخيرالدة بأشبيلية، وصومعة حسان بالرباط، تلك الأثافي التي تقوم دليلاً على عظمة فن المعمار بالمغرب والتي لو لم يكن للمنصور الموحدي أثر إلاهي لكفى. وكذلك يقال فى مآثر السلطان مولاي اسماعيل العلوي ومنشآته بمكناس التي حار الناس فى أمرها فنسبوا صناعتها الى الجان. وقديماً نسبت العرب كل أمر غريب الى عبقر.

أما فى باب زخرفة البناء وتشييده بالكلس والجص وصنع المقربصات البديعة وتلوينها وتذهيبها ونظم قطع الفسيفساء الجميلة وتنسيقها والكتابة والنقش على الجص والخشب بكل تأزق وتفنن، فهذه آثار

بني مرين بفاس وغيرها ومن أعجبها مدارسهم العلمية الشهيرة، وهذه قبور السعديين بمراكش كلها تشهد بما لهذا المغرب العظيم من السبق في مضمار الفنون الجميلة والابداع في هندسة البناء الرفيعة، وليس العيان كالبيان. ولا ننسى الموسيقى، وهي من الفنون التي تدل على سمو الذوق وازدهار الحضارة. ونخص الموسيقى المسماة الأندلسية بالذكر، وهي التراث الفني الموسيقي الحافل الذي يحتفظ به المغرب والذي ألف فيه الموسيقار الكبير محمد بن الحسن الحايك كتابه المعروف باسمه والذي حافظ فيه على الهيكل العام لهذه الموسيقى، وكان لولا تسجيله لها ربما آل إلى الضياع.

وهذه الموسيقى وان نسبت إلى الاندلس فإن عوامل التطور قد أضفى عليها حلة المغربة، لا سيما وقد ثبت أن بعض صنائعها مثل طبع الاستهلال ونغمة المزموم هما من وضع فنانين مغاربة. أضف الى ذلك ابتكارات أخرى وتحسينات في الأداء والآلات وغيرها.

ويهمنا أيضا الكلام على الخط المغربي الذي يكون مظهراً من مظاهر الحضارة المتميزة، والفرق بينه وبين المشرقي والأندلسي واضح، ويلاحظ الانسجام بينه وبين الأرقام الحسابية في الهندسة الشكلية وله أوضاع تختلف باختلاف الأسماء وما تستعمل فيه، فمنه المجوهر والمبسوط والمسند، والكوفي وهو أيضا له ميزته الخاصة، وكثيراً ما تستعمل في الزخرفة الكتابية على الجدران ونحوها، ولكنه مع الأسف كاد يضمحل.

وان ننس لا ننسى أنواع الملابس والفرش والمطبخ الذي طارت شهرته فى البلاد . وفى عصر الموحدين كتب أحد المعتنين تأليفاً فى المطبخ المغربي ذكر فيه مئات الأصناف من أطباق الطعام والحلويات والمعاجين والأشربة ، ونشر هذا الكتاب المستشرق الأسباني ويسي ميراندا مع ترجمة أسبانية . وعلاقة المطبخ بموضوعنا تتبين من قول بعضهم «أرني مطبخ أي بلد أحدثك عن حضارته» .

إن هذه الأعمال الكبيرة التي ذكرناها والشخصيات العظيمة التي قدمناها لو حذفت من التاريخ لطويت صحف من أعظم صحف المجد والخلود للأمة العربية ولخسرت الانسانية جانبا من التراث الفكري والحضاري الذي تعتز به الآن .

وهذا خير تقويم لمساهمة المغرب فى بناء الحضارة العربية بل أقربه إلى الانصاف وأقله تبجحاً . ولعل من المناسب أن ننقل عبارة شهيرة للشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب صفوة الاعتبار جاءت فى كتابه هذا . وهي قوله : « لعمري ان صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش» . فإذا كان هذا الفاضل قد سجل ملاحظته هذه عن تفوق المغرب فى العالم العربي فى وقته فى فن الانشاء (وهو يعني كتابة الرسائل الديوانية) فكم من باب من أبواب المعارف ينتظر تسجيل ما للمغرب فيه من يد ، كانت وما تزال ذخراً للعروبة وفخراً .

والمؤمل، والمغرب يبني استقلاله من جديد، بقيادة عاهله الهمام الحسن الثاني نصره الله، أن يخطو خطوات مماثلة لما سجله فى الماضي، ويحافظ على دوره الرائد فى تقدم الثقافة الاسلامية وبناء الحضارة العربية بما تعيد تاريخها المجيد ويزيدها تألقاً وسطوعا وازدهارا وعطاء، والواقع أن الأعمال الكبيرة والمشروعات العظيمة التي تباشر وتنجز باستمرار، تبشر بمستقبل باهر لهذا البلد الأمين والشعب المؤمن، حقق الله الرجاء.

الفصل الثاني

القاضي عياض عالماً

بجنب الأصيلي وأبي عمران الفاسي، يذكر القاضي عياض فيكون ثالث ثلاثة رفعوا رأس المغرب عالياً فى ميدان الدراسات الاسلامية العليا، ولا سيما علم الحديث رواية ودراية والفقة والخلاف على مستوى المذاهب والأئمة، ولئن كان أكثر ما بقي من آثار سلفيه العظيمين، هو أقوالهما والنقول المعزّوة إليهما فى أمهات الكتب ومراجع هذه الدراسات من شروح السنّة ودواوين الفقه والأصول، فإن القاضي بخلاف ذلك قد كان محظوظا أكثر منهما، اذ احتفظت لنا الخزائن العلمية بأهم مؤلفاته، فشارك زميليه فى انتشار الذكر والشهرة بالعلم واعتداده فى الحفظ والفهم، وانفرد عنهما بقاء كتبه شاهدة بعلوّ كعبه وطول باعه فى المعارف والفنون.

ثم هو بعد ذلك يمتاز ببراعته فى الأدب وصناعتي النظم والنثر، والخطابة ومعرفته الواسعة بالأخبار والتواريخ إلى غير ذلك مما جعل منه معلمة محيطة مفتوحة لكل طالب وراغب.

أما صفاته وأخلاقه وديانته المتينة ومكانته الاجتماعية، فهو مما نتحدث عنه فى تفاصيل ترجمته، وناهيك بالقداسة التي يتمتع بها لدى عامة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى ابن عياض اليحصبي بفتح الياء وتثليث الصاد بعدها باء موحدة، نسبة الى يحصب بن مالك قبيلة من حمير، السبتي الدار والميلاد كان سلفه فى القديم بالأندلس، ثم انتقلوا الى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، وانتقل جده عمرون الى سبتة بعد سكنى فاس.

وكانت ولادة عياض فى منتصف شعبان عام ٤٧٦ ونشأ فى صيانة وعفاف طالباً للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه فحفظ القرآن ثم جوّد قراءته بالسبع على مشيخة بلده وغيرهم، وأخذ العلم بها عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي والخطيب أبي القاسم عبد الرحمن ابن محمد المعافري. والفقيه أبي اسحاق ابراهيم بن جعفر اللواتي وجماعة. وامتلأ وطابه من العلم فقها وحديثا وتفسيرا وعربية وأدبا ولكنه تاق الى المزيد من التحصيل وسعة الرواية فرحل الى الأندلس سنة ٥٠٧ وعمره احدى وثلاثون سنة فأخذ بقرطبة عن أبي الحسين بن سراج وأبي عبد الله بن حمدين وأبي القاسم بن النخاس بالخاء المعجمة وأبي الوليد ابن رشد وابن عتاب وأبي بحر الأسدي وابن العواد وأبي القاسم ابن بقي وابن الحاج وابن مغيث وغيرهم، ثم شخص الى مرسية وقصده أبو علي الصوفي فوجده قد استخفى قبل ذلك بأيام لنبذه خطة القضاء من أن

يعفى، ووجد الرحالين إليه قد نفذت مواطنهم وتربّص بعضهم، فمكث هو لا يقع له على خبر سوى الظن بأنه هنالك، وقابل اثناء ذلك بأصوله وكتب منها ما أمكن على يد خاصة من أهله ولا يشك ان تصرفه فى ذلك لم يكن إلا بأمره هكذا يقول ابن الابار فى معجم أصحاب أبي علي الصدفي.

ثم يزيد قائلا: ولقد شافهه بعد خروجه بما معناه أنه لو طال تغيبه لأشعره بالترحل الى موضع لا يؤويه لكونه به، فيخرج مختفيا إليه بأصوله ويسمع منه ما يرغب فيه لما كان فى نفسه من اخفاق رغبته وتعطيل رحلته.

وهذا يدل على مزيد التقدير وعظيم الاحتفال من الصدفي بعياض، وأنه ما قصده إلا وهو من أهل العلم المعروفين ورجال هذا الشأن الذين لا يخفى أمرهم على ذويه.

ومما سمعه عليه كما فى فهرسته (الغنية) ولخصه ابن الابار فى معجمه المذكور: الصحيحان للبخاري ومسلم المؤتلف والمختلف، ومشتبه النسبة لعبد الغني والشهاب للقضاعي والأشارة للباجي وأدب الصحبة للسلمي وشيوخ البخاري لابن عدي وعوالي ابي الفوارس الزيني. وقرأ جامع الترمذي ورياضة المتعلمين لأبي نعيم وللشيباني والناسخ والمنسوخ لهبة الله والاستدراكات على البخاري ومسلم والتتبع والالزامات لهما ثلاثتها للدارقطني والأربعين حديثاً لأبي نعيم والشبياني وأوهام الحاكم لعبد

قال ابن الابار : وعندي أهل أبي علي من كتاب المؤتلف والمختلف للدراقطني وفيه خط عياض بالمعارضة خاصة.

وأجاز له أبو علي جميع رواياته وكتب عنه فوائد كثيرة. وأجاز له أبو علي الغساني وخليص بن عبد الله وأبو زيد بن منتال وابن السيد البطليوسي وأبو زيد بن الوراق وخلق غيرهم.

على أن شيوخ عياض قد أربوا على المائة ومنهم أبو بكر ابن عطية وابن العربي لقيهما بسبتة وكتب له من المشرق أبو نصر النهاوندي والطرطوشي وأبو طاهر السلفي وأبو عبد الله المازري من المهدية وسواهم.

وعاد من الأندلس فى سنة ٥٠٨ فلم تطل رحلته إليها أكثر من سنة ومع ذلك فقد قام فيها بنشاط علمي عظيم، لأن الرجل كان قد اكتمل تكوينه وانتهى تحصيله فلم يكن وكده من لقاء الشيوخ إلا توسيع الرواية وربط الصلة بأعلام عصره ولا سيما مثل الصدفي الذي رحل إلى المشرق وأخذ به عن بقية من الأكابر علا بهم سنده وتميزت طريقه: وإلا فإن ما أخذه بسبتة عن شيخه وعمدته أبي عبدالله التميمي فضلا عن غيره كاف ليجعل منهم رجل علم ورواية من أعلى طبقة. فقد ذكر هو في كتابه الغنية أنه لازمه كثيراً للمناظرة في المدونة والموطأ وسماع

المصنفات فقرأ عليه وسمع بقراءة غيره كثيراً وأجازه جميع رواياته، فمما سمع عليه وقرأه، وأجازه به موطأ الامام مالك وصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وشرح غريب الحديث للقاسم بن سلام وكتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة وغريب الحديث للخطابي وكتاب علوم الحديث لأبي عبدالله الحاكم وكتاب الطبقات لمسلم بن الحجاج وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي والمدونة لابن القاسم والملخص لمسند الموطأ للقابسي والتقصي لمسند الموطأ لابن عبدالبر ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري والرسالة لابن أبي زيد القيرواني... وكلٍ ذلك مناظرة ورواية وضبطاً واجازة فيما فاته وبعضه قرأه عليه مراراً.

فإذا كان هذا أخذه عن واحد من مشيخة بلده، فما الظن به وقد تضلع من معين معارفهم جميعاً واستوعب ما عندهم درسا وتحصيلاً؟.

ولذلك فإنه عندما رجع من رحلته أجله أهل سبتة للمناظرة عليه فى المدونة، وهو ابن ٣٢ عاما كما يقول ابنه فى الجزء الذي عرف به فيه، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى ـ يعني شورى الأحكام ـ ثم ولي القضاء عام ٥١٥ فسار فيه أحسن سيرة، محمود الطريقة مشكور الحالة أقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها. وبنى الزيادة الغربية فى جامع سبتة التي كمل بها جماله وبنى فى جبل المنيا الرابطة المشهورة الى غير ذلك من الآثار المحمودة والمساعي المرضية فعظم جاهه وبعد صيته.

وكلام ابنه هذا يؤيده كل من ترجم له، وهو يدل على ما صار له من مكانة اجتماعية مرموقة. الى مكانته العلمية التي لا ينازع فيها أحد.

وقد كثر ثناء الناس عليه، وتقريظ أهل العلم له بحيث قال فيه أبو محمد ابن أبي جعفر ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض... وقال له أبو الحسين ابن سراج، وقد أزمع الرحلة إلى أحد مشائخ الأندلس: «لهو أحوج إليك منك إليه».

وقال ابن الابار عنه فى معجم أصحاب أبي علي الصدفي: «كان لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه، فى العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر ومهارته فى الفقه ومشاركته فى اللغة العربية وبالجملة فكان جمال العصر ومفخر الأفق.

ويقول ابن فرحون فى الديباج منوهاً بمشاركته فى شتى العلوم: «كان القاضي أبو الفضل امام وقته فى الحديث وعلومه، عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم بصيراً بالأحكام عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك، شاعرا مجيدا، ريان من الأدب خطيباً بليغاً».

وهو كلام أهله لابنه فى التعريف بأبيه ولكنه مما تناقله أكثر الذين

كتبوا عن عياض تسليماً له واقراراً بالحق فيه. وقد سقطت منه بعض الكلمات مما يتعلق بعلمه وخلقه. ونحن ننقله بتمامه بعد أن رأينا اصفاق مترجميه عليه. فالولد كان أعرف بأبيه من غيره وهو كان أيضا من أهل العلم وتولى القضاء كأبيه فشهادته له وزنها وتقديرها.

يقول رحمه الله: «نشأ أبي على عفة وصيانة مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذق، طالبا للعلم، حريصا عليه، مجتهدا فيه، معظما عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، الى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه فكان من حفاظ كتاب الله، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث فى وقته، أصولياً متكلماً، فقيهاً حافظاً للمسائل عاقداً للشروط، بصيراً بالأحكام، نحوياً، ريان من الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً خطيبا حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة: حلو الدعابة صبوراً حليماً، جميل العشرة، جوادا سمحا، كثير الصدقة دؤوباً على العمل، صلبياً فى الحق، وبلغ فى التفنن فى العلوم ما هو مشهور فى العالم معلوم.»

ولما ترجمه ابن بشكوال فى كتاب الصلة قال: «قدم الأندلس طالباً للعلم. ثم قال وقدم علينا قرطبة فى ربيع الآخر سنة احدى وثلاثين وخمس مئة. وأخذنا عنه بعض ما عنده... وكلمته الثانية تصحح كلته الأولى، فإنه كما قدمنا لم يرحل الى الأندلس حتى تملأ من العلم وأشبع

نهمته منه ولم يكن قصده إلاّ لقاء الشيوخ والاتساع فى الرواية، وإلا لما أخذ ابن بشكوال عنه فى رحلته هذه. وهي رحلته الوحيدة ليس له غيرها الى أن قدم إليها قاضيا فيما بعد ذلك على ما يأتي.

وعلى كل فإن مكانته العلمية التي توطدت بدراسته الجامعة على مشيخة بلده ومن مرّ بها من غيرهم قد زادت تمكناً برحلته الاندلسية ومن لقي بها من الأعلام كما تدل عليه شهادات من ذكرنا وغيرهم مما يطول تتبعه.

أما مكانته الاجتماعية فقد كانت متوطدة بأبوّته الكريمة، ان جدّه عمرون الذي استقر بسبته كان من أهل الفضل والدين، حج مرارا وغزا كثيرا، وبنى مسجدا وأوقف عليه بعض الدور، كما أوقف أرضا لدفن الموتى،.. ولا شك ان هذه الأعمال قد أكسبت ولده نباهة وذكراً حسناً، ثم زاد ذلك بظهور حفيده وارتفاع درجته فى العلم وولايته للقضاء وسيرته الحميدة فيه، والمشاريع العمرانية التي قام بها من الزيادة فى المسجد وبناء الرابطة وغير ذلك على ما ألمح إليه ابنه فى النبذة التي نقلناها عنه، وهي مما أكده غيره من المترجمين له، الشيء الذي جعله الشخصية المرموقة ان لم نقل الشخصية الأولى فى البلد.

وعظم شأن عياض فدعي الى تولي القضاء بغرناطة، فكسر العادة التي كانت تجعل القضاة يأتون من الاندلس الى المغرب، ولنستمع الى أحد علماء غرناطة وهو أبو زيد عبد الرحمن ابن القصير يصف دخول

عياض الى هذه المدينة فيقول : « لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمّر مثله. وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا، نيفا على مئتي راكب ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة. وخرجت مع أبي رحمه الله تعالى فى جملة من خرج فلقينا شخصا بادي السيادة، منبئا عن اكتساب المعالي والإفادة ».

وكانت ولايته لقضاء غرناطة فى أيام تاشفين بن علي اللمتوني المرابطي أول يوم من صفر سنة ٥٣١ قال ولده فى كتاب التعريف، فنهض إليها وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمته السّنية وأخلاقه المرضية مشكوراً عند جميع الناس، لكن تاشفين ضاق به ذرعه، وغصّ بمراقبته، وصدّ أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم، فصرفه عنها فى رمضان سنة ٥٣٢ يعني ان ولايته لم تدم إلا سنة وبضعة أشهر، وذلك لما أخذ نفسه به من الجد والاستقامة والضرب على أيدي أهل العبث والفساد وتقدم عن ولده فى ولايته لقضاء سبتة أنه أحسن السيرة وأقام الحدود. وهنا يحضرنا ما روي عنه أنه أقام حد الشرب على الكاتب الشهير الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح فإنه دخل عليه وهو سكران فأمر باستفكاهه فوجدت منه رائحة الخمر، فنفذ فيه الحدّ، ولما خرج أتبعه بصلة، وذلك منتهى التسرع والمجاملة للأديب الأندلسي اللامع فى آن واحد.

ويقال ان هذا عزم على حذفه من كتابه القلائد، فقيل له ان ذلك

أدعى لاشتهار هذه القضية وتساؤل الناس من عدم ذكره للقاضي عياض وهو من هو علماً وأدباً وجاهاً، فعدل عن ذلك. والقصة لعمري مما يذكر فى مغربات الأخبار، وهي تدل على أن ما وصفه به ولده فى كتاب التعريف دون ماكان عليه من الصرامة فى الحق والقيام بواجب الخطة، لأن من فعل هذا مع شخصية معروفة لها وزنها وقيمتها فى الأوساط الأدبية والفكرية، أحرى أن يكون مع غيرها بالوصف الذي ذكره به، ولذلك فإن تأخيره عن قضاء غرناطة من قبل تاشفين ابن علي هو كما قال ولده لشدته على أهل الظلم والباطل من رجاله واتباعه بدون شك ولا ريب.

وهنا يحسن أن نورد ما كتبه عنه الفتح بن خاقان فى القلائد وهي فذلكة جمعت ما وصف به من أصالة ورسوخ وتفنن فى عبارات معجبة وفقر مطربة هذا نصها: «الفقيه الحافظ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض رحمه الله تعالى. جاء على قدر، وسبق الى نيل المعالي وابتدر واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلت به للعلم نحور، وتجلت له منها حور، كأنهنّ الياقوت والمرجان، لم يطمثهنّ أنس قبلهم ولا جان، قد ألحقته الأصالة رداءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرياسة أقاليدها، وملكته طريقها وتليدها، فبذّ على فتائها الكهول سكونا وحلما، وسبقهم معرفة وعلما، وأزرت محاسنه بالنبد اللياح، وسرت فضائله سرى الرياح، فتشوقت لعلاه الأقطار، ووقفت تحكي نداه الأمطار. وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة،

واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعني باقامة أود الأدب وينسل إليه أربابه من كل حدب، الى سكون ووقار كما رسا الطود، وجمال مجلس كما جليت[1] الخود وعفاف وصون ما علما[2] فساداً بعد الكون، وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر، ولو بان للصبح ما لاح ولا أسفر ... »

واستقر عياض بعد ذلك ببلده معززاً مكرماً، يخدم العلم بالدرس والتأليف وكان حسن الالقاء للمسائل كثير التحرير للنقول. وقد انتفع به من العلماء من لا يحصى كأبي زيد ابن القصير المتقدم الذكر وأبي جعفر بن مضاء، وابن بشكوال على ما سبق عنه، وابن غازي السبتي، وأبي جعفر بن حكم ومن طريقهم نروي كتبه، وغيرهم. وكان كثير الاعتناء بالتقييد بارع الخط، يقول ابن خاتمة فى كتاب المزية على ما نقله عنه المقري فى أزهار الرياض: « وقفت على خطه رحمه الله فرأيته خطاً رائقاً، وكان سريع الوضع[3] ويدل على ذلك كثرة أوضاعه وكتب مع ذلك كتبا كثيرة بيده.

وكانت هذه حاله الى أن ولي قضاء سبتة ثانية فى عام ٥٣٩ قدمه ابراهيم ابن تاشفين بن علي، فابتهج أهل بلده بذلك، ثم بادر بالدخول

---

(١) فى الأصل بالحاء ونظن صوابها جليت بالجيم

(٢) فى الأصل علمنا والصواب ما أثبتناه

(٣) أى التأليف

فى أمر الموحدين أثر ظهورهم فأقره عبد المؤمن على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه. وخاطبه بالتنويه وحظي عنده، واجتمع به بمدينة سلا عند توجهه الى محاصرة مراكش، فلقي منه براً وأقبالاً تامين، الى أن اضطربت أمور الموحدين عام ٥٤٣ فالتالت حاله معهم بثورة أهل بلده عليهم فنقلوه الى مراكش حيث توفي فى جمادي الأخيرة وقيل فى رمضان سنة ٥٤٤.

وقيل أنهم ولوه قضاء بلدة داي بتادلا وهي بلد الصومعة، ويروى له شعر مما قاله فيها يشكو الغربة ويتشوق الى بلده سبتة.

وكثرت الشائعات حول موته فقيل ان المهدي بن تومرت أمر بقتله وقيل أنه مات فجأة فى الحمام بدعاء الغزالي عليه لأنه ممن أفتى بحرق كتاب الاحياء، وقيل أنه مات مسموماً سمّه يهودي ولا صحة لذلك كله. والثابت أنه مات ميتة طبيعية بعد مرض قصير، مغرّبا عن بلده بسبب تورطه فى الثورة على الموحدين، وان هؤلاء عاملوه معاملة خاصة نظراً لعلمه وفضله، وأنه دفن بمراكش بباب أيلان داخل المدينة حيث يوجد قبره رحمه الله ورضي عنه.

* * *

ألف القاضي عياض عدة كتب كلها جليلة ومفيدة، وبعضها لا نظير لها ولم يسبق بمثله منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق

المصطفى ﷺ، وهو الذي طار به صيته فى العالم الاسلامي وتلقته الأمة بالقبول وأصبح أحد الكتب التي تحظى بالتقديس من لدن أهل المعرفة وعوام المؤمنين. يقول ابن فرحون فى حقه: «ابدع فيه كل الابداع: وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه ولم ينازعه أحد فى الانفراد به ولا أنكروا مزيته فى السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا فى الاستفادة منه وحمله الناس وطارت نسخه شرقاً وغرباً».

وقد مدح بشعر ونثر كثير، وطعن الحافظ الذهبي فيه بكونه محشوا بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية، لم يسلّم له... فما فيه من الموضوع قليل جدا وكذلك ما فيه من الضعيف. ومن المقرر أن الحديث الضعيف يعمل به فى الفضائل والمناقب، والحق ان بناء كتاب الشفا على آيات الذكر الحكيم وصحيح الأخبار وأقوال العلماء والنقول الثابتة عن أئمة التفسير ورواة السيرة، وما تخلله من الضعيف وما قيل فيه أنه موضوع إنما يأتي به بعد ذلك للاستيناس والاعتبار، وقد خرّج أحاديثه الحافظ السيوطي فى كتابه مناهل الصفا وبيّن ما فيها فلينظر. وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى من قصيدة للشيخ أبي محمد عبدالنور العمراني، مدح بها الشفا ومؤلفها:

شفى بالشفا ما فى النفوس فلم يدع
مقالا لذي قول بجهر ولا سر

فقسم أقساما وبوّبها معا
وفصّلها مقبولة العلم والذكر
وقدّم آيات الكتاب التي بها
سما قدره فوق السمّاكين والنسر
وثنى بأخبار صحاح شهيرة
كما أتبعت شمس السموات بالبدر
وكم غاص فى بحر المعارف ينتقي
من الدر ما قد غاب فى غامض البحر
فجوّد منها كل قاص وشارد
وما ضله الحفاظ فى سالف الدهر
وكل غريب النقل صحت طريقه
وكل طريف المتن عار عن النكر
وألحق منها كل نوع بجنسه
ورتبها مثل الجمان على النحر
وأجرى علوما بين ذاك جليلة
فيا حسن ما يروي ويا حسن ما يجري

وقد كتبت على الشفا شروح كثيرة يطول تتبعها وذلك ما يزيد دلالة على أهميته والاحتفال به من علماء جميع العصور التي تلت عصر مؤلفه.

ومن كتبه الجميلة القيمة كتاب مشارق الأنوار على صحاح الآثار

فسر فيه غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ وأسماء الرجال ونبه على مواضع الأوهام والتصحيفات، قال فيه ابن فرحون: «وهو كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان فى حقه وفيه أنشد بعضهم:

«مشارق أنوار تبدت بسبتة
ومن عجب كون المشارق بالغرب..»

وهذا البيت مما كان ينشده أبو عمرو بن الصلاح، قال ابن الابار: أخبرني بذلك من أصحابنا من سمعه. وكان بعض العلماء يقول عنه: «لا أحتاج فى كتب الحديث إلا للمشارق فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدته منها» وهو يعني ولا شك شروح الحديث فإن المشارق يقوم مقام الكثير منها بما فسر من ألفاظ الحديث الواقع فى الأصول الثلاثة المذكورة وبين معانيها وما ضبط من أسماء الرواة ونبه على مشتبهها وما أصلح من الأوهام والأغلاط التي وقعت فى أسانيد تلك الكتب أو متونها الى غير ذلك مما إذا حققه القارىء المعنيّ بكتب الحديث وروايته والنظر فيه وهو من أهل العلم والفقه فإنه يستغني بالمشارق عن الرجوع الى الشروح والتعاليق التي كتبت على أمهات كتب السنّة وأصولها مما هو موضوع المشارق وغيره. لأن غالب أحاديث الصحاح الثلاثة مذكورة فى غيرها برواياتها فعليها المدار، ولذلك كثر النقل عن عياض فى كتابات أئمة الحديث شروح السنن كما قال الشيخ محمد الأمين الصحراوي فى كتابه المجد الطارف والتالد: «وانظر الى عياض فلا ترى

تأليفاً معتبراً من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء «إلا وجدته مشحوناً بكلامه مع أنه لم يرتحل الى المشرق» يعني والنقل عنه والاعتماد عليه مما يتساوى فيه أهل المغرب والمشرق بل هو فى المشرق أكثر. وبالجملة فإنه قيمة كتاب المشارق لا تعرف إلا بالوقوف عليه وممارسته وقراءة مقدمته.

ومن كتبه الحديثيِّة المهمة كتاب اكمال المعلم أكمل به شرح شيخه المازري المسمى بالمعلم بفوائد صحيح مسلم ذكر فى أوله ان طلبته رغبوا إليه فى كتابة شرح عليه يبين مشكله ويقيد مهمله لأنه لم يؤلف فى شرحه إلا ماذكره شيخه أبو علي الجياني فى تقييد المهمل من الكلام على مشكل أسانيده مع مشكل أسانيد البخاري. إلا كتاب المازري... قال لكن الإحاطة على البشر ممتنعة ومسارح الأذهان والألباب متسعة. وكثيرا ما وقفنا فى الكتاب المذكور على أحاديث مشكلة لم يقع لها هناك تفسير. وفصول محتملة تحتاج معانيها الى تحقيق وتقدير.. ثم قال: انه رأى ان تأليف كتاب جامع لشرحه لا معنى له مع ما تقرر فى «المعلم» من فوائد جمة لا تضاهي فيأتي الكلام فى ذلك ثانية كالحديث المعاد، ولذلك قر رأيه أن يكون شرحه ذيلا لشرح شيخه، يبدأ بما قاله ثم يضيف إليه ما زاده عليه ومن ثم سماه اكمال المعلم اعترافا بفضل السبق للأمام المازري وهذا الكتاب هو أيضا مما أفضل به على علماء الحديث ونشر له ذكراً عاطراً بينهم وقد أتم به ما بدأه فى الكتاب قبله بخصوص صحيح مسلم كما ألمع لذلك فى مقدمة المشارق.

ومنها كتاب الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، وهو فى علوم الحديث فريد فى بابه جمع ما فى كتب الفن قبله وأضاف إليه نكتاً غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله وفصولاً هامة فى أقسام الرواية والتحمل مع مزيد من الضبط والاتقان والتحري فى السماع والأداء... وفيه يقول الدكتور أسد رستم «على الرغم من مرور سبعة قرون عليه، فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ فى أوروبا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منه وان ما جاء فيه من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج فى باب تحري الرواية والمجيىء باللفظ يضاهي أدق ما ورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الأفرنج فى ألمانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا[١].

ومن كتبه فى الفقه على مذهب الامام مالك كتاب التنبيهات المستنبطة على المدونة والمختلطة حل فيه ألفاظ المدونة وضبط مشكلاتها وحرر رواياتها وسمى رواتها، فصار عليه المعول فى شرحها لأنه جمع بين طريقة أهل العراق الذين يجعلون مسائل المدونة كالأساس ويبنون عليها تفريعات المذهب من غير نظر فى تصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ وطريقة أهل القيروان الذين يبحثون الألفاظ ويحققون الروايات، وذلك لقوة عارضته وسعة اطلاعه، فوضع بذلك منهجاً جديداً للفقهاء والباحثين فى أصول المذهب ممن أتى بعده.

---

(١) انظر مقال الطريقة العلمية من تحري الأحاديث النبوية فى العدد الممتاز من مجلة الرسالة المصرية ٥ يناير سنة ١٩٤٤

ومن كتبه العظيمة فى الطبقات والتراجم كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك المشهور باسم المدارك. وهو كتاب سدّ به فراغاً عظيماً فى هذا الباب ولم يقم قبله ولا بعده من فرى فرّية فيه وانما حسب كتاب التراجم والطبقات أن ينقلوا عنه ويلخصوه ويذيلوا عليه، ومع ذلك فإنهم لم يحاكوه أو يقاربوه فأحرى أن يأتوا بمثله نفسه العالي وقد كان قدوة لغيره من أتباع المذاهب الأخرى فألفوا فى طبقات علماء مذهبهم كتبا تختلف باختلاف مداركهم ومشاربهم.

وقد استهله بمقدمة ضافية فى ترجيح مذهب مالك وبيان القواعد التي بنى عليها والمقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى ثم أتبع ذلك بترجمة واسعة للامام مالك ولم يترك فيها شاذة مرتبـــا لهم على الطبقات فأتى بالعجب العجاب فى ذلك لا سيما فى تراجم الكبار منهم والمشهورين سالكاً فى ذلك المنهج العلمى النقدي، مطبقا قواعد النظم المتبعة عند أئمة الحديث فى الرواية مما بينه فى كتاب الإلماع السابق الذكر: توثيقاً وتوهيناً، وبيان وهم وتصحيح خطأ وما الى ذلك.

يقول فى ترجمة ابراهيم بن حماد: وزعم ابن كامل انه كان يتهم بالنصب وأنّ القاضي أبا الحسين كان يحقق عليه ذلك، وانه خرج حديث مواخاة النبي ﷺ لعلي من كتاب عمه اسماعيل... وابن كامل كثير الحمل على آل حماد بن يزيد متتبع لعثراتهم الخ...

ويقول فى الأمام الأشعري: وقد روي فى أمره حديث لاأعلم له أصلاً ولا رويته فلا أذكره ومن رأى أنه كان ابتداء أمره معتزلياً ثم رجع الى هذا المذهب فهذا لا ينقصه، فقد كان من هو أفضل منه أولاً كافراً ثم أسلم. بل هذا أدل على ثبات قدمه وصحة يقينه فى التزامٌ السنّة اذ لم يلتزمها لأنه نشأ عليها ولا اعتقدها تقليدا إلا بما نور الله قلبه وأيده بروحه.

ويقول فى محمد بن يحيى بن لبابة ابن أخي ابن لبابة الكبير: قال بعضهم: ولم يكن له علم بالحديث وكان ينحرف عنه قال عياض: أما قلة علمه بالحديث فظاهرة وأما انحرافه عنه فلا. بل يميل إليه فى تواليفه، وإذا اعتمد على نظرة فى مسألة أو ضعف فيها قول المدنيّين، كثيرا ما يقول: إلا أن يأتي بذلك أثر صحيح.

ويقول فى ترجمة البرادعي وذكر كتابه التهذيب: على أن أبا محمد عبد الحق ألف عليه جزءا فيما وهم فيه على المدونة. وأنا أقول ان البرادعي بنجوة عن انتقاد عبد الحق، فإن جميع ما انتقد عليه لفظ أبي محمد رحمه الله (يعني ابن أبي زيد).

ويقول فى ترجمة عبد الله بن مسرور: أشهد أنه رجع فى اجازته لقوم ساءت حالهم قال عياض: مثل هذا لا يضر الرواية، وقد فعله بعض من لقيناه ببعض من سخطه من أصحابه، ولعله لم يخف عليهم أي الرجوع فيها لا يصح لكنه كالردع.

ويقول فى ترجمة ابن غافق: وزعم الشيرازي أنه تفقه بعلي بن زياد وهذا وهم لأن ابن غافق ولد بعد موت علي بن زياد بأزيد من عشرين سنة.

هذه أمثلة قليلة من طريقة عياض فى كتابة التراجم وتحريره لها، ونقده لما تتضمنه من خطأ أو وهم بسبب تساهل الرواة أو غفلتهم أو غير ذلك من الأسباب ومنها يعلم أن الكتاب عظيم القيمة والنفع جليل الفائدة والقدر.

ومن كتبه فى التراجم أيضا كتاب الغنية، وهو فهرسة أشياخه وما أخذ عنهم بقراءة أو اجازة مع ذكر أسانيدهم ان كانت لهم رواية وقد بلغ بهم عدد المئة وقال إنه ترك جماعة ممن لقيهم وذاكرهم وحضر مجالسهم من الفقهاء والرواة ولكنه لم يحمل عنهم من الكتب والحديث شيئاً.

وباقي كتبه هي بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ومعجم شيوخ أبي علي الصدفي، والاعلام بحدود قواعد الاسلام، وسر السراة فى أدب القضاة، ونظم البرهان فى جزم الآذان، والفنون الستة فى تاريخ سبتة، ولم يكمل، وغنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسيل، ومجموعة خطب وأجوبة عن المسائل التي وقعت إليه، وتاريخ يشير إليه كثيراً فى كتاب المدارك وذكره بعض مترجميه بجامع التاريخ وغير ذلك من مشروعات لم تكمل. وقد طبع من هذه الكتب كتاب

الشفا طبعات لا تعد، وكتاب المشارق وكتاب المدارك وكتاب الالماع وكتاب قواعد الاسلام وكتاب بغية الرائد وكتاب الغنية، وباقيها بعضه يوجد مخطوطاً وبعضه الآخر يعد فى حكم المفقود.

الفصل الثالث

القاضي عياض أديبًا

عادة حين تطغى الناحية العلمية على شخصية من قادة الفكر والمعرفة، وينقطع صاحبها الى النظر والاستدلال، والتعمق فى البحث والاستقراء، فإن الجانب الأدبي منه، قد يعتريه ضعف ووهن، بسبب الانصراف الى غيره، وقلة الممارسة لموحياته، ولكننا نجد هذه العادة قد تخلفت فى الاعتبار عند القاضي عياض، وان كفايته الأدبية بقيت فى المستوى المطلوب الذي يقصر عما لدى غيره من الأدباء المختصين، ولذلك لم يقبلها مترجموه، بل عنوا بها ونصوا عليها، وذلك فى هذه العبارة التي تناقلها جميعهم، وهي تقول باللفظ الواحد: «انه كان كاتباً شاعراً مجيداً ريان من علوم الأدب خطيباً بليغاً».

والواقع ان العلوم بعضها يعين بعضاً، وانه بقدر مشاركة العالم فى الفنون والمعارف، يتسع أفقه، ويجود نظره، ويعظم عطاؤه، وتحسن صلته بالأوساط الفكرية المختلفة، والأدب على الخصوص بحكم تمثله للتراث من شعر ونثر وأوابد وربائد كالخطب والأمثال والأسجاع ولغات العرب وأيامها وأنسابها فضلا عن العلوم الثلاثة، وهي النحو والبلاغة

واللغة، هو أعظم عون على فهم الكتاب والسنّة والنفوذ الى أسرارها وتحقيق معانيهما، وما كان عالم متضلع ولا فقيه نظار، إلا وله المام بالأدب وغوص فى قاموس اللغة واستظهار لشعر العرب.

وبهذه الحصيلة الأدبية واللغوية، استطاع عياض أن يؤلف كتاب المشارق فى تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وضبط ألفاظ هذه الكتب والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات فيها بالأضافة الى تحقيق أسماء الرجال واختلاف الروايات، ولو كان اعتماده على الرواية فقط لما تأتى له ذلك، ولما حاز هذا الكتاب اعجاب العلماء فى المشرق و المغرب وصار مصدرا لكثير من المؤلفين فى الموضوع بعده.

ومثل ذلك يقال فى شرحه لحديث أم زرع المسمى (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد) وهو فى مجلد مشحون بالفوائد اللغوية والأدبية والشواهد الشعرية للألفاظ الغريبة التي جاءت فى الحديث المذكور، زيادة على الفوائد الفقهية والحديثية التي هي مطلب الرواة من هذا الحديث.

وفى الفقه كتب القاضي عياض مؤلفه (التنبيهات المستنبطة على المدونة المختلطة) فجمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل، وشرح الكلمات المشكلة والعبارات المغلقة، ووفق بين طريقة أهل العراق، وطريقة أهل القيروان، باعتماد الرواية والدراية معاً وعدم الانطلاق من احداهما واهمال الأخرى.

كل هذا دليل على تفنن الرجل، وتعدد مصادر معرفته، وتسلحه بسلاح العلوم الآلية، قبل الخوض فى العلوم الأصلية من فقه وحديث وتفسير وكلام وسيرة نبوية. وغيرها. الالمام بالأدب معرفة، وتعاطيه تجربة، حتى أمكنه أن يحقق تلك الأعمال الكبيرة ويأتي بما لم يأت به غيره، ولا سيما من المعاصرين له، إلا القليل النادر الذي تهيأ له مثل ما تهيأ لقاضينا العبقري كالعلامة جار الله الزمخشري صاحب تفسير الكشاف، فإنه شبيه به فى هذه الحيثية، وأظن أنهما مثالان فريدان فى النصف الأول من القرن السادس، هذا للمعتزلة، وصاحبنا للسنّة.

وعلى كل، هذه ثقافته الأدبية، وهي انما تعطيه صفة أديب بالمعنى العام الذي جعل ابن الانباري يسمي كتابه فى النحاة طبقات الأدباء، وياقوت يطلق على معلمته فى التراجم معجم الأدباء، وليقس عليهما غيرهما. أما ما نعنيه عندما نصف القاضي عياض بالأديب فهو الممارسة الفعلية، والتجربة العملية، للانتاج الأدبي الذي يتمثل فى كتابة النثر ونظم الشعر على الطريقة المعهودة بين أدباء عصره وأدباء العربية بعامة، وقد تعاطى عياض الأدب بهذا المعنى وبرز فيه، وساجل أعلامه وسابق فرسانه، ممن كان لهم القدح المعلى فى هذا الشأن من أهل زمنه، واعتبر من وراد الصناعتين الذين لا يتكاءدهم نظم ولا نثر كلما أرادوا ذلك.

وفى نظرنا ان القاضي ناثراً أبلغ منه شاعراً، لذلك ان هذه المواهب هي مثل الغرائز انما تقوى الواحدة منها على حساب الأخرى، وبطبيعة

الحال فإن معظم أعمال القاضي وأكثر انتاجه كان من قبيل الكتابة والنثر ، سواء اكتسى صفة الكتابة العلمية أم النثر الأدبي ، وحيث الأمر كذلك فإن فرص الاحسان والتجويد كانت تتاح له في النثر أكثر من الشعر وبالتالي فإننا عند المقارنة بين شعره ونثره نجد أنفسنا أمام انتاج غزير من هذا الأخير في مقابل حصيلة قليلة من الشعر لا نتمكن معها من الحكم لشعر القاضي بمثل ما نتمكن من الحكم لنثره.

ومن المعلوم ان النثر نوعان: سجع وترسيل، والأول يكون مثقلا بمحسنات البديع والتلميحات الأدبية فيقال فيه نثر فني، وهو مجال تنافس الكتاب لإظهار براعتهم واثبات مقدرتهم على التلاعب بالألفاظ وتحميلها أكثر ما يمكن من الاشارات الى معالم التراث. وقد غبر زمن كان فيه هذا النوع من النثر هو معيار كفاءة الكاتب، وهو المخرج أي (الموضة) التي يأخذ بها الجميع، ويحاول أن يتصف بها كل الناس. ومترجمنا ممن جلّى في هذا الميدان، وكان في طليعة الكتّاب الآخذين بمخرج زمنه، ولا أدل على ذلك من تعامله مع النخبة المختارة منهم ومطارحته لهم في هذا الصدد، بالرسائل الموازية لرسائلهم، والمعبرة بمثل أسلوبهم عن المقاصد التي يضطر الى التعبير عنها لهذا الكاتب أو ذاك

ونأخذ على سبيل المثال رسالة كتبها الى عميد كتّاب الاندلس، الذي كان يعد النموذج الفائق في هذا اللون من الكتابة، وهو الفتح بن

خاقان صاحب كتاب (قلائد العقبان) يرجوه فيها ابلاغ تحيته الى الرئيس أبي عبد الرحمن بن طاهر أحد صدور الكتاب فى وقته، وهذا نصها :

« عمادي أبا نصر، متني الوزارة ووحيد العصر، هل لك فى منة تفوت الحصر، تخف محملاً، وتبلغ أملاً، وتشكر قولا وعملا، شكرا تترنم به الحداة ثقيلا ورملا، اذا بلغت الحضرة العلية مسلّما، ولقيت الطاهر بن الطاهر، فخر الوزارة مسلمّا. وحللت من فنائه الأرحب حرما، ولمست بمصافحته ركن المجد يندي كرما، فقف شوقي بعرفات تلك المعارف، وانسك شكري بمشاعر تلك العوارف، وأطف اكباري بكعبة ذلك الجلال سبعا، وبوّىء لوادي فى مقر ذلك الكمال ربعا، وأبلغ عني تلك الفضائل سلاما، ويلتئم بصريح الحب التئآما، ويحسن عني بظهر الغيب مقاما، ويسير عني بأرج الحمد انجادا واتهاما » .

أورد هذه الرسالة الفتح فى القلائد الى جانب رسائل أخرى له، ومقطعات شعرية، اثناء الترجمة الحفيلة التي ترجم له بها وقال فيها عنه : « وهو الى اعتنائه بعلوم الشريعة واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعني باقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب . ثم قال بعد ذلك : « وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض، ما هو أسحر من العيون النجل والجفون المراض » ثم أوردها . وهي كما نرى على الشرط من استيفاء عناصر الفني التي ألمعنا إليها آنفا، فمع التزام السجع فى جميع فقراتها، نلاحظ هذا الطباق فى وصف هذا المخاطب بمثنى الوزارة

ووحيد العصر، على ما تقرر فى علم البديع، وهذا التلميح الى أبيات الشاهد المعروفة، باقتباس بعض ألفاظها وهى التي تقول:

يا صاحبي فدت نفسي نفوسكما
وحــــيثما كنتما لقــــيتما رشدا
ان تحملا حاجة لي خف محملها
تستوجبا منة عنـدي بها ويـدا
أن تقـرآن على اسماء ويحكمـا
مني السلام وأن لا تشعرا أحدا

وكذلك تمضي الرسالة المختصرة أو الرقعة كما عبر عنها الفتح فى هذا السبيل فتروق حاملها والمحمولة إليه، وهنا فارسا الميدان، وحائزا قصب الرهان، ولولا ذلك لما أثبتت فى مجموع القلائد، واعتبرت عند الجماعة من الأوابد. ولا مفهوم لها فغيرها مما ذكره الفتح مثلها بل ان لصاحبنا كتاباً يسمى غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسل، ولا شك أنه من هذا الفن بسبيل.

على أن القاضي الأديب لم يقصر نثره الفني على الرسائل الأخوانية، بل استعمله فى كتاباته العلمية كذلك. ولا سيما فى خطب كتبه ومقدمات تآليفه. وحسبنا بخطبة كتابه الشفا ومقدمته دليلاً ساطعاً وبرهاناً قاطعاً على حسن تصرفه فى هذا الفن الانشائي البديع الذي أضفى به على كتابه المذكور فى فاتحته وخاتمته، وفى كثير من فصوله،

حلة من البيان والبلاغة زادته الى موضوعه الشريف بالذات، شرفا، وأحلته بين الكتب مكاناً رفيعاً جعلت الناس يتمتعون بسماع أوله وآخره عند ختمه، ويكلون قراءته الى قارىء حسن الصوت يترنم بتلك الجمل المنظومة نظم الجواهر فى عقود الحرائر، ولما كان هذا الكتاب من الشهرة بمكان، فإنا نكتفي بالإحالة عليه، ولا نطيل باستعراض ما أشرنا إليه.

وللقاضي عياض قلم بارع فى الترسيل، نعني النثر المرسل غير المقيد بشيء من أوصاف النثر الفني وهو الغالب على كتبه العلمية، وانما نوهنا بنثره الفني لكونه على ما أسلفنا من قول هو عنوان الأدب وأسمى فنون الكتابة عند العرب الى قريب من عصرنا هذا حين عاد الأمر الى نصابه، وانتصر أسلوب ابن خلدون، ونثر المترسلين قبله وبعده، وان كانوا قلة، على ذلك الأسلوب المعقد المتكلف الذي يعجز عن مسايرة التطور الفكري العظيم المتمثل فيما تنتجه الأمة العربية اليوم. وللوقوف على أمثلة من ترسيل القاضي ينبغي الرجوع الى كتابه الشفا بالخصوص ففيه فصول بليغة من نثره المرسل، نوّه بها العلماء من قديم ومن أمثلة ذلك قوله فى اعجاز القرآن: «ومن وجوه اعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» وقال «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» وسائر معجزات الأنبياء عليهم السلام انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته، على ماكان عليه اليوم مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة

لأول نزوله الى وقتنا هذا، حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم أتى بشيء يؤثر فى معارضته ولا ألف كلمتين فى مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه إلا بزند شحيح بل المأثور عن كل من رام ذلك القاؤه فى العجز بيديه، والنكوص على عقبيه».

ونصت الفقرة التي نوهت ببراعته الأدبية على أنه كان خطيباً بليغاً، وعند ذكر الخطابة فى هذا الصدد ينصرف فكرنا الى الخطابة فى المحافل والتجمعات العامة كما كان الشأن فى عهد ازدهارها واتخاذها وسيلة لتوجيه الرأي العام. ولكن الخطابة بهذا المعنى فى عهد عياض كانت قد اضمحلت، ولم يبق بها عمل، واقتصر الأمر على الخطابة الدينية التي ثبتت فى وجه مختلف العوامل المادية والمعنوية بفضل الاسلام وشريعته الغراء التي فرضت هذا اللون من الكلام وجعلته شعيرة دينية للتبليغ والتوعية فى خطبة الجمعة والعيدين والصلوات الأخرى الطارئة. وفى هذا الحيز تدخل خطب المترجم وملكته الخطابية التي وصفت بالبلاغة.

والنماذج التي بأيدينا من خطبه تنبئ عن مقدرة بيانية كفيلة ببلوغ الأغراض وتحقيق الأهداف بلغة واضحة سهلة وان سلكت سبيل العصر فى السجع والتقفية. لكن من غير تعمل ولا تكلف خصوصا

وان الموضوع فى الخطابة الدينية هو فى الغالب الوعظ والأرشاد لعامة الناس فلا يكون هناك ما يحجب القصد عن الفهم ولا ما يصد الادراك عن الغاية، والمهم ان الخطبة من انشاء الخطيب وانه راعى فيها حالة المجتمع وما يتطلبه من امامه الذي يسعى لأداء فرض الصلاة الجامعة التي لا تكمل إلا بالخطبة المنبهة المربِّية المعلمة. وهذا غاية ما يطلب من خطيب الجمعة فإن أدى واجبه فى ذلك فهو خطيب بليغ.

وهذه احدى خطبه فى موضوع التوكل:

« عبد الله سلّموا الأمور الى من بيده أزمّة مقاديرها تنجحوا، واشتروا راحة قلوبكم باخلاص التوكل على الله تربحوا، واعلموا ان الحرص لا يزيد المرء على ما قسم له، وتصاريف القدر تقطع لكل آمل أمله، وانما يدرك الانسان بسعيه ما كتب له لا ما طلب، ويبلغ بكدّه ما قسم له لا ما أمّل واحتسب، فأجملوا رحمكم الله فى الطلب توفقوا، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا، واريحوا أنفسكم من النصب فى طلب الدنيا والكد، فإنه لا مانع لما اعطى الله ولا معطي لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد، ألا وان التوكل على الله والثقة به أحد ابواب الايمان، ومن أفضل درجات العدل والاحسان وهو حقيقة العبودية والتوحيد، وموجب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد، فقد جرى القلم بما كان ويكون، ونفذ قضاء الله بكل خير وشر وحركة وسكون، وانقطعت الاطماع عن تأميل غير ما تقدم من مشيئاته، (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) ففيم التعب والطلب وقد سبق لكل فى الكتاب ما

سبق، وعلام اللهف والأسف على أمر قد فرغ منه قبل أن تخلق، ألم يضمن لك ربك رزقك وما وعد فى سمائه، ألم يعلمك أنه لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه؟ فعامل ربك أيها العبد بالتوكل والتسليم، تفز بالعيش الهنيء والثواب الجسيم).

ونخلص الى شعر القاضي عياض وان لم نشف غليلا من نثره مؤكدين أنه نتف ونبذ قليلة بالنسبة الى نثره الكثير، ولكن هذا لا يعني الكيف بقدر ما يعني الكم، وسبق تعليل ذلك، وعلى كل وجه فإن شعره كنثره قد أخذ من البلاغة بحظ وافر، وقد استجاده دهاقنة الكلام وصيارفة النقد، وأثبتوه فى مجموعاتهم ومختاراتهم، ونحن فيما وصلنا منه نتحسس نفساً عالياً ونتلمس ديباجة رقيقة، ونكاد نميل الى انه من قبيل شعر الكتّاب الذي يبلغ من الانطباع ما يجعله نموذجا يحتذى، ولكنه فى عدده قليل.

ومنه هذه الأبيات التي قالها عند ارتحاله عن حاضرة قرطبة:

أقول وقد جد ارتحالي وغردت
حداتي وزمّت للفراق كتائبي
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي
وصارت هواء من فؤادي ترائبي
ولم يبق إلا وقفة يستحقها
وداعي للأحباب لا للحبائب

رعى الله جيرانا بقرطبة العلى
وسقّى رباها بالعهاد السواكب
وحيّا زمانا بينهم قد ألفته
طليق المحيا مستلان الجوانب
أخواننا بالله فيها تذكروا
معاهد جار أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم
كأني فى أهلي وبين أقاربي

ولست بحاجة الى التنبيه على ما فى هذه الأبيات من دقة الوصف لحركة السفر، وشدة اللوعة لفراق الأحبة. وهذا الاستدراك الجميل والحذر فى قوله «للأحباب لا للحبائب» خشية أن يفهم مالا يليق بكرامته العلمية وهو فى دار الغربة مما يدل أعظم الدلالة على حسن تصرف الشاعر وتملكه لناصية التعبير عما فى ضميره، وأدائه للمعنى المراد بكل سهولة وبكل براعة أيضا وتلك هي الغاية التي يتطلع إليها فحول الشعراء، ويمتاز بها شعر الكتاب الذي صنّفنا شعر القاضي فيه ولا يعيه بشيء إلا انه قليل.

ومما استحسن من شعره قوله فى خامات زرع بينها أزهار من شقائق النعمان هبت عليها ريح:

انظـر الى الـزرع وخاماتـه
تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبـة خضراء مهزومـة
شقائـق النعمـان فيها جراح

وله وقد جنّسه :

يا من تحمّل عني غير مكترث
لكنه للضنى والسقم أوصى بي
تركتني مستهام القلب ذا حرق
أخـا هوى وتبـاريح وأوصاب
أراقب النجم فى جنح الدجى سهرا
كأننـي راصد للنجـم أوصابي
وما وجدت لذيذ النوم بعـدكم
إلا جنى حنظل فى الطعم أوصاب

وله وهو بمدينة داي على قضائها يتشوق الى بلده سبتة :

أقمريـة الأدواح بالله طارحـي
أخا شجـن بالنـوح أو بغنـاء
فقد أرقتني من هديلك دنسة
تهيّـج من شوقي ومـن برحـائي

لعـــلك مثلي يا حمم فإنـــــي
غريب بداى قد بلــيت بداء
فكم من فلاة بين داى وسبتة
وفــرق بعيــد الخافــقين قواء
تصفـق فيــه للريـــاح خوافــق
كما ضعضعتني زفـرة الصعــداء
يذكـــرني سح الميـــاه بأرضهـــا
دموعا أريـقت يوم بنت ووائي
ويعجبنـي فى سهلهـا ومـــزونها
خمائــــل أشجـــار ترف لزائي
لعل الذي كان التفرق حكمه
سيجمع منا الشمل بعد تنـاء

ونكتفي بهذا القدر من شعر القاضي، معتقدين أننا بما ألقيناه على انتاجه الأدبي من أضواء، نثراً كان أو شعراً، قد أبرزنا هذه الناحية من نواحي عبقريته الفكرية، ولو فى خطوطها العريضة، وبينّا أن عياضا الأديب لا يقل شأنا عن عياض العالم، وما أحسن العلم والأدب اذا اجتمعا، وهما مع الأسف قليلا ما يجتمعان..!

ونختم هذا الفصل بما قاله أبو الحسن علي بن عبد الله بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضا، وتصرف بصفة أدبية فى اسمه:

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم
والظلـــم بين العـــالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا فى اسمه
كي يكتمـــوه وشأنـــه معلـــوم
لولاه ما فاحت أباطـح سبتـة
والـروض حول فنائهـا معـــدوم

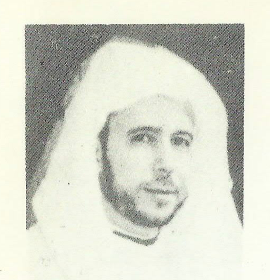
ولكن ما زعمه من انعدام الروض حول سبتة مردود عليه، ولو لم يكن لسبتة إلا قرية بليونش وهى من ضواحيها لكفاها رياضاً غنّاء، وهي التي قيل فيها:

بليـــونش جنـــة ولكـــــن
طريقهـــا يقطـــع النياطـــا
كجنـــة الخلـــد لم يحزهـــا
إلا الـــذي جاوز الصراطـــا

والأمر كما قيل فى مدح كتاب المشارق من ذلك البيت الذي سبق انشاده. وقد أجيب عنه بقول الآتي:

ومـا شرق البلـدان إلا رجـالها
وإلا فلا فضل لترب على ترب

• • •



الكاتب بقلمه

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف بقلمه

الخط والصورة والمعلومات عناصر أكثر من كافية للتعريف
بأي شخص كان، وإذا لم يصح اختصار الخط والصورة
فلعلنا لا نخل بشرط دار الرفاعي للنشر إذا اقتصرنا على
أهم المعلومات. عبد الله كنون ولد عام 1326 = 1908
بمدينة فاس وانتقل وهو صبي مع أسرته إلى مدينة طنجة
عند فرض الحماية الأجنبية على المغرب، وكانت الأسرة تنوي
الهجرة إلى المدينة المنورة، ولكن نشوب الحرب العالمية
الأولى حال دون ذلك، ودرس بطنجة على والده السيد
عبد الصمد كنون وعلى غيره من كبار العلماء، وبدأ الكتابة ونظم
الشعر وهو شاب، واشتغل بالتعليم وعمل بالحركة الوطنية
وكتب في الصحف، وظهرت كتاباته الأدبية بمجلة الرسالة
في سنواتها الأولى، وألف عدة كتب جاوزت الثلاثين فيها
الأكثر من الكتب، ما بين دراسات أدبية وإسلامية وتحقيق بعض
كتب التراث، إلى أعمال إبداعية شعرية ونثرية. وأسندت
إليه وظائف إدارية وحكومية. وانتخب عضوا في المجامع
اللغوية ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ورابطة العالم الإسلامي
بمكة، وهو أمين رابطة علماء المغرب وعضو في أكاديمية المملكة
المغربية وفي مجلس الوصاية على العرش وحامل وسام الكفاءة
الفكرية المغربي من الدرجة الممتازة ووسام علمي من تونس
ورضا الله أفضل مراده. والتوفيق. عبد الله

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض المنذر ٤٨٢٤٩٨٣ / ٤٨٢٤٨٦٥